المحاضرة: المدرسة الجزائرية خلال هيمنة الاستدمار الفرنسي

، بين سياسات التّدجين ومقاومَة الإخضاع

(الجزء الأول)

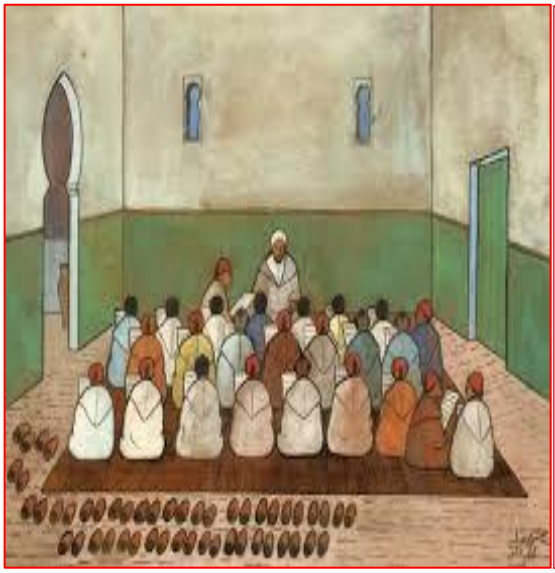

التعليم الأصلي بالجزائر[1] من نماذج المدرسة الاستعمارية بالجزائر 1937

الأهداف المنشودة:

- **التعرف على و اقع التربية والتكوين بالجز ائر قبيل الغزو الفرنسي**
- **الكشف عن صحة "همجية الجز ائريين" قبل الغزو؟**
- **أسطورة "المهمة التّحضيرية الفرنسية للجز ائريين"**
- **لمحة تاريخية عامة عن التّعليم الاستعماري بالجز ائر**

[1] http://alger-roi.fr/Alger/mouzaiaville/pages/12_mouzaia_ecoles.htm

- **التّعرف على أبرز معالم السّياسات التّعليمية الفرنسية لتدجين واستضباع الجزائرين**
- **الكشف عن الجهود المحلية لمواجهة السّياسات التّعليمية الفرنسية**
- **نماذج من مخرجات المدرسة الفرنسية بالجزائر**

تمهيد:

يجمع الدّارسون للسّياسة التّعليمية الاستعمارية بالجزائر على أنّه منذ نهاية القرن التّاسع عشر وحتّى نهاية الهيمنة الفرنسية، شهدت الإدارات الفرنسيّة المتعاقبَة في الجزائر تطور مجموعة غير متجانسة من المدارس ومراكز التّعليم التّقني والمهني. سياسات أدّت لتعليم يشابه-الى حدّ ما- ما يحدث في فرنسا الحضرية- باعتبار التّعليم بالجزائر امتداداً للتّعليم الرّأسمالي، بخصوصية محليّة-، لكن ذو أغراض محدّدة .(Lembré, 2017)

الواقع الاجتماعي والتّعليمي للجزائر قبيل الغزو الفرنسي:

مُقبِّلات للتّفكير حول الموضوع:

- الحديث عن موضوع التربية والتّعليم خلال الحقبة الاستعمارية بالجزائر يذكرنا بقرار 2005/4/23[2] حول ضرورة تمجيد الاستعمار ودوره الإيجابي ضمن

[2] L'article 4 de la loi du 23 février 2005 invitant à reconnaître dans les programmes scolaires « le rôle positif de la présence française outre-mer ».

المقرّرات التّعليمية الفرنسية. في حين عجز السلطات الجزائرية عن إدانته ولو قانونيًا في نفس السّنة ؟؟؟؟.

- البحث البيبليوغرافي حول دراسات أكاديمية عن المدرسة الاستعمارية بالجزائر يوصلنا لمجموعتين بارزين من الباحثين، الأولى قبل الاستقلال والثانية بعده، أغلبها لأجانب؟؟، نذكر من بينهم[3] :

- Jean Mirante 1930[4]; Zénaïde Tsourikoff 1935[5]; Emurit 1954[6].
- Ivonne Turin 1971[7], Abdellah Mazouni 1969[8], Fanny Collona 1975[9], Antoine Léon 1991[10]....

- التّفكير في المدرسة الفرنسية بالجزائر وإفريقيا عامة، يموضعها بالدّرجة الأولى كجهاز للهَيمنة والاخضاع والتّرويض العَلَني وفق فلسفة المستعمِر، وليس حسب الطلب الإنساني والاجتماعي لحقّ التّمدرس.

---

[3] للغوص أكثر في تاريخ الجزائر نقترح قائمة تضم أكثر من 2050 ملفاً حول الجزائر ودول الجوار.
LISTE DES 225 LIVRES, vous pouvez les télécharger sur le site: www.algerie-ancienne.com

[4] Jean Mirante: « la France et les œuvres indigènes en Algérie ». Edité par le Comité national du centenaire d'Algérie, 1930.

[5] Zénaïde Tsourikoff ; « L'enseignement des filles en Afrique du Nord » : thèse pour le doctorat, Faculté de Droit, université de Paris, 1935.

[6] Marcel Émerit, « L'état intellectuel et moral de l'Algérie en 1830 » [article], Revue d'Histoire Moderne & Contemporaine Année 1954, 1-3 pp. 199-212.

[7] Yvonne Turin, « Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale. Ecoles, médecines, religion, 1830-1880 », Paris, Maspero,1971.

[8] Abdellah Mazouni, « Culture et enseignement en Algérie et au Maghreb. Paris : Maspero,1969.

[9] Fanny Collona, « Instituteurs algériens (1883-1939), Alger, Presses de la Fondation Nationale des Sciences Politiques,1975, 239 p.

[10] Antoine Léon, « Colonisation, enseignement et éducation : étude historique et comparative », Paris, L'Harmattan, Bibliothèque de l'éducation, 1991,320p.

ما موقعها بين الموضوعية العلمية والتّبرير الأيديولوجي الاستعماري لها؟

- المدرسة في فلسفتها الأصلية فضاء للتّثقيف والتّنوير، لكنها قد تصير مكان للتّجهيل والتّدجين وغرس "القابلية للاستعمار La colonisabilité " كما قال "مالك بن نبي" (1905.1973) ، والاستِحمار على حدّ تعبير "علي شريعتي"[11].
- حتّى بعدما أقلعت قاطرة المدرسة الاستعمارية بالجزائر بعقيدة أيديولوجية استعمارية واضحة، كان الهدف المرام تحقيقه صناعة فرد/مجموعة/مجتمع غير أصيل ومحلّي، "أهالي" لا غير، وتشكيل نموذج "جديد" بدل "القَديم" ، رمز التّخلف والتّأخر الحضاري -كما روّجت له الأيديولوجيا الاستعمارية[12]-، وفق شعار "جِئنا لتَحضِيرِكم civilisé vous pour venu y ’On"، ويافِطَة "المهمَّة الحَضارية/التَّحضيرية "La mission civilisatrice لفرنسا بإفريقيا ككل، وبأيديولوجية مزعومة عنوانها 'تفوّق العِرق الفرنسي Supériorité de la race

---

[11] من أشهر مؤلفاته: النَّباهة والإستحمار"، وهي عبارة عن تجميع لخطب مسجلة صوتيا، ألقاها الدكتور علي شريعتي، صدرت في كتاب لأول مرة عام 1984.

[12] وصف الجنيرال " le général de Bourmont " مهمة غزو الجزائر، أمام 64000 جندي بتاريخ 1830/5/10، قائلا:

« La cause de la France est celle de l'humanité. Montrez-vous dignes de votre belle mission. Qu'aucun excès ne ternisse l'éclat de vos exploits ; terribles dans le combat, soyez justes et humains après la victoire... Rendant la guerre moins longue et moins sanglante, vous remplirez les vœux d'un souverain aussi avare du sang de ses sujets que jaloux de l'honneur de la France ».

وبذات اللغة أمر المقدّم" *Lucien-François de Montagnac* " جنوده في *(Lettres d'un soldat, 15 mars 1843)*:

"Toutes les populations qui n'acceptent pas nos conditions doivent être rasées. Tout doit être pris, saccagé, sans distinction d'âge ni de sexe: l'herbe ne doit plus pousser où l'armée française a mis le pied [...]. Voilà comment il faut faire la guerre aux Arabes: tuer tous les hommes jusqu'à l'âge de quinze ans, prendre toutes les femmes et les enfants, en charger les bâtiments, les envoyer aux îles Marquises ou ailleurs. En un mot, anéantir tout ce qui ne rampera pas à nos pieds comme des chiens ".

"يجب إبادة كل السكان الذين لا يقبلون شروطنا. يجب أن يُصادَر، ويُتلَف كلّ شيء، دون تمييز في العمر أو الجنس: يجب ألا ينمو العشب حيث وطأت أقدام الجيش الفرنسي .[...]هذه هي طريقة شنّ الحرب على العرب: أقتلوا كّل الرّجال حتّى سِن الخامسة عشرة، خذوا جميع النّساء والأطفال، حمّلوا السّفن وأرسلوهم إلى جزر الماركيز أو أي مكان آخر. باختصار ، أبيد كل شيء لا يزحف عند أقدامنا مثل الكلاب".

française' المزعوم على 'عِرق الأَهاليRace indigène '، حيث كانت المدرسة مخبرها ومطبعتها.

- كان الهدف من ذلك صناعة "حَواريّ النِّظام الاستعماري"،و"خُدَّام المعبَد الاستدماري"، وقد نجحت الى حدّ ما، حيث خلق فئة وسيطة بينه وبين الشّعب الجزائري.
- تجسّد الهدف الأكبر للاستعمار طيلة خمسين سنة الأولى في تدمير الجزائر، وإبادة أهلها، جسديّا وفكريّا وثقافيّا وروحيّا[13]. وتدمير نمط الإنتاج بمعناه الشّامل (الفكري، الرّوحي، التربوي، الثّقافي، الاقتصادي..) القديم للمجتمع الجزائري، ونجح الى حدّ ما في ذلك، خاصّة خلال المجاعة الكبرى لعام 1868. حيث هلك ما بين ربع 4/1 إلى ثلث 3/1 سكان الجزائر من 1830 إلى 1870 (Kamel, 2001)
- كتب "رمزي الرويغي" باحث بجامعة جنوب كاليفورنيا يصف ممارسات الاستعمار آنذاك: "بعد الاستيلاء على مدينة الجزائر، لجأ الجنرالات الفرنسيون إلى استخدام مستويات خارقة للعادة من العنف في إخضاع السّكان. وقضى الآلاف نَحبَهم، بعدما قاد الجيش الفرنسي المدنيين إلى الكهوف وأضرم النّيران ممّا أدّى إلى موتهم اختناقاً بالدّخان. بعد إعدام قادة المقاومة الجزائرية، قام الجنود الفرنسيون

---

[13] على سبيل المثال، نظم الجنرال *Thomas-Robert Bugeaud* (1784-1849) بشكل منهجي مذابح شنيعة ضدّ السكان المدنيين بعد محاصرة وحبسهم في الكهوف من أجل إشعال الغاز لخَنقهم بالدّخان *Il faut fumer l'Arabe!*. حتّى أنه كان يتفاخر بالسّعي لإبادة العرب (*le petit arabe*)-كما كان ينعت- قائلاً: 'إنّها الحرب مستمرة حتّى الإبادة ... يجب أن نخنق كل العرب". ولعل من أشنعها تلك التي حدثت بالأغواط نوفمبر 1852 حيث حاصرهم لمدة ستة أشهر ، قبل أن تستعمل فرنسا السّلاح الكيماوي لإبادة ثلثي سكانها، إذ لاتعتبر أوّل إبادة جماعية بالأسلحة الكيماوية في تاريخ البشرية.

بجمع جماجم الضّحايا وإرسالها إلى فرنسا كتذكار للنّصر، ولكي تستخدم أيضا كعيّنات في التّجارب العلميّة. ولا يزال بعضها محفوظاً في "متحف الإنسان (Musée de l'Homme)"في باريس -رغم استرجاع بعضها سنة 2020- (الرويغي، 2019). إضافة لذلك، زاد الإهمال الصِّحي الفرنسي للجزائريين، فبعد 84 عاما من الاستعمار سنة 1914 لم تُحصِ الجزائر المستعمَرَة سِوى 77 طبيبًا فقط (MEYNIER, 2014, p. 14). رغم ذلك بدأ عدد السّكان في الارتفاع مع نهاية القرن التاسع عشر، بسبب ما يسمّيه سكان كيبيك "اِنتقام المهد La revanche des berceaux".

- لعلّ من أكبر مخاوف المستعمِر الّتي أخّرت اعتماد تعميم التّعليم الحقيقي للجزائريين، هو المعنى الضِّمني للتّربية والتّعليم في ذاته، لأنّ: Eduquer : assimilé et éveillé les esprits. والاستعاب يعني تعليمهم بإيقاظ واستثارة العقول، وهذا ما كان يخشاه، ذلك أنّ "إيقاظ" العقول يعني تنويرها واكسابها آليات وميكانيزمات التّفكير الحر، التّفكير المُستَنِير بلغة " Kant" المتخلّص من سلطة أيديولوجية بعينها، تفكير يُقارع نجاحات واخفاقات الماضي ويتجاوز سياجات ودوغمائيات الحاضر-الاستعماري- وسُبل تجاوز إكراهاته، كما يرسم سُبلَ تحقبق آمال المستقبل. مفارقة جعلت "Jules Ferry" يقترح بتاريخ 1885/7/30 مفهوم "التّربية القاعدية" للأهالي فقط، تلخصها عبارة (un peut de français) لأبناء الأهالي.

- بطبيعة الحال الحديث عن التّربية بلون معيّن يؤدّي حتما بالحديث عن مضامينها، خاصّة الثّقافة (الاستعمارية)، وما يلحقها من ثقافة الخُنوع والذُّل والمهانَة (فرنسا "قَضاءٌ وقَدَر" كما كان يروّج له بعض رجال الدّين الخانعين)، حيث يتم تشريب وتلقين وتدجين الجيل المنَشَّأ وِفق ثقافة الإذعان التّام لهيمنتها، والقبول بقدر الله وقضاءه. ذلك لأنّ لعبة اكساب/ اكتساب الثّقافة ليست بريئة كما يقول :"Abdellah Mazouni"

"La culture n'est pas un jeu innocent, spontané et sans conséquences sur le destin de l'humanité et spécialement de celle à laquelle on appartient par la naissance, l'adhésion ou la formation. Qu'elle soit individuelle ou collective, particulière ou générale, profane ou sacrée, elle remplit une fonction sociale importante. Dans les pays sous-développés surtout, on ne saurait la considérer comme une futilité, un loisir ou une activité gratuite. Choisir un type de culture, c'est opter du même coup pour un certain type de société. Chaque conception de la culture se ramène ainsi objectivement à une conception politique. Dans ces conditions de dépendance assez étroite entre politique et culture, refuser de s'engager n'est que lâcheté ou hypocrisie." (Mazouni, 1969, p. 8)

- "الثّقافة ليست لعبة بريئة، عفوية بلا عواقب على مصير البشرية، خاصّة تلك التي ننتمي إليها بالميلاد أو بالعضوية أو بالتكوين. سواء كانت فردية أو جماعية، خاصّة أو عامة، عادية أو مقدّسة، فإنّها تؤدّي وظيفة اجتماعية مهمّة. لا سيما في البلدان النّامية، حيث لا يمكن اعتبارها عبث أو هواية أو نشاط مجاني. لأنّ اختيار نوع

الثّقافة هو اختيار لشكل معيّن من المجتمع في نفس الوقت. وبالتّالي يتم اختزال بشكل موضوعي كلّ تصوّر للثّقافة ضمن تصوّر سياسي. وعليه في ظروف التّداخل والتّبعية بين السّياسة والثّقافة، رفض الانخراط والالتزام هو فقط جبن ونفاق".

الواقع الاجتماعي والتّعليمي للجزائر ...ودحض أسطورة جَهل الجزائريين:

هل يمكن الحديث عن سياسة تعليمية عثمانية قُبيل الاستعمار؟.

- أكّدت عديد الدّراسات خاصّة التّاريخية[14] منها أنّ التعليم كان نابعا بالدرجة الأولى من الشّعور الدّيني وليس من الشّعور العلمي، حيث كان التّعليم تابعاً للدّين بشكل كبير، إذ لم يكن تعلّم القراءة والكتابة إلاّ من دعائم لحفظ القرآن الكريم، وكذلك تعلّم أبجديات الرّياضيات، عمليات الحساب بأشكاله المتعدّدة بدافع ديني، بامتياز. كما أنّ الدّولة العثمانيّة لم يكن لها دخل في ذلك. حيث لا وجود لمنصب وزير التّعليم ولا مدير أو وكيل أو نحو ذلك من الوظائف الرّسمية. (سعدالله، 2007، صفحة 314).
- ولم تكن الزُّمرَة العسكرية العثمانيّة -آنذاك- تسيطر على الجانب الأخلاقي في الجزائر، بل لم تشرف وتوجّه الحكومة والإدارة العامّة التّعليم (Emerit, 1954). ولأنّ القرآن كان أساس كل مراحل التّعليم الابتدائي والثّانوي والعالي، تَمَّ إنشاء مدرسة بجانب كلّ مسجد، مصلّى، قَبر وَليّ مُبَجَل لتعليم الدّين والشّريعة. رغم ذلك

[14] من المؤلفات المحترمة حول تاريخ الجزائر المعاصر ولمدّة خمسة قرون الأخيرة، حيث يضع الجزائريين كفاعليين في تاريخهم، مؤلف: James McDougall (2017). A History of Algeria, Cambridge: Cambridge University Press, 448 p .

لم تحضى دُور العبادة والتّعليم بدعم الدولة. أغلبية المؤسّسات الدّينية أسّسها متديّنون وكبار مسؤولين شيّدوا ممتلكات لهذا الغرض، وخصّصوا دخلها لصيانة المباني ولأجور أعضاء هيئة التّدريس والعبادة، ضمن سياق المؤسّسات الدّينية للحَبُوس[15] (Emerit, 1954). ما جعل الأوقاف/الحَبوس عصب وشريان حياة كقثير من المؤسّسات التّعليمية، مع التّذكير أنّ الدّافع لانتشار ظاهرة التَّوقِيف /الوَقْف بشكل واسع خلال الهيمنة العثمانيّة لم يكن بدافع تَعبُّدي فقط، بل من أجل حماية الممتلكات من سلطة الباشَوات، بجعلها مقدّسة وغير قابلة للتّصرّف فيها." ثروة وقفيّة" طائلة، تمّ الاستلاء عليها من لدن المستعمِر، بل حوّل مؤسّساته لما يخدم سياسته التّضليلية. فكتب "ألكس دو طوكفيل" في رسالته الثّانية حول الجزائر[16] "لقد وضعنا أيدينا في كلّ مكان على أملاك الأوقاف، وحولّناها لوجهة غير الوجهة الّتي كانت عليها سلفاً، لقد عَطّلنا المؤسّسات الخيرية وأهملنا المدارس والنّدوات العلميّة حتّى إندثرت" (Tocqueville A. d., 1837).

---

[15] لم يكن الحَبوس مكرّس فقط لتعليم وتحفيظ القرآن، بل وجدت أوقاف لتيسير الحج إلى مكة، لحفر آبار المياه، أو حتى لثكنات الإنكشاريين. كما وجد بعضها لترميم وصيانة المساجد، على نحو وقف "سُبل الخيرات" بالجزائر العاصمة، وهي مؤسسة كانت تدير ثمانية مساجد حَنفية، وكان دخلها في عام 1837 هو 13639 فرنكًا. كانت هذه أيضًا الوجهة الرئيسية لبضائع المسجد الكبير بالجزائر العاصمة، والتي جلبت 12000 فرنك. تم استخدام العديد من الأعمال الخيرية. وكذلك كان وقف مكة والمدينة بالجزائر العاصمة ، الذي جمع عام 1837 ، 122503 فرناً ، استثمرت لإيواء فقراء المدينة مجاناً، وفائض الدخل خصص لفقراء المدن المقدسة المقيمين في الجزائر أو في الشرق. وكان وقف سيدي عبد الرحمن حيث قدر مداخيله 6000 فرنك يوزع أسبوعيا من 1 إلى 3 فرنكات لكل محتاج بمدينة الجزائر. أما الأندلسيون ، فكانوا يهدفون لمعالجة بؤس المنفيين، كان دخلهم 5000 فرنك (Emerit, 1954).

[16] أما الأولى فكانت بعنوان: Première lettre sur l'Algérie (23 juin 1837) . يمكن تحميل جميع أعماله حول الجزائر من الموقع: http://classiques.uqac.ca/classiques/De_tocqueville_alexis/de_la_colonie_algerie/lettre_sur_algerie/lettre_sur_algerie.html

- يمكن إجمال أبرز دوافع ومحفّزات إقبال الجزائريين-آنذاك- على تعليم أبنائهم، إمّا بدافع ديني حيث مكانة العلم والعلماء محترمة وذات شأن في الدّنيا والآخرة، أو كما قال "أبو القاسم سعد الله" إمّا امتثالا لحثّ الدّين على التّعليم، وإمّا لأنّ الأطفال في سِنّ معيّنة لا يحتاجهم أهلهم في العمل، وإمّا لأنّ مهنة التّعليم والقضاء والإفتاء وما إليها كانت وراثية في الأمرة، وإمّا لأنّ التّجارة والحِرف الأخرى تقتضي معرفة بالحساب ونحوه. وقد يكون شعور الآباء نحو التّعليم منطلقاً من هذه العوامل كلّها، كما ينطلق من تقاليد الجزائريين الرّاسخة وهي احترامهم للإنسان المتعلّم وتقديرهم للعلم في حدّ ذاته" (سعدالله، 2007، صفحة 314).

شهادات تاريخية حول المستوى التّعليمي لغالبية الجزائريين :

ما مصداقية أنّ الجزائريين كانوا هَمجاً، لا يقرؤون ولا يكتبون إلاّ ما نَدَر؟

- ذكرت عديد المصادر التّاريخيّة أنّ كثير من الحواضر الجزائرية اشتهرت بقيمتها العلميّة والتّعليمية حيث كانت لعقود نِبراس العلم والعلماء، وهذا ليس كلام دوغمائي وإنّما يمكن للقارئ العودة للكتب التّاريخية، والّتي شهدت أنّ مدن من مثل قسنطينة، بجاية، الجزائر، تلمسان، وبلاد ميزاب في الجنوب... كانت مراكز تعليميّة بامتياز، ليس للجزائريين فقط بل لكلّ المسلمين وغير المسلمين من أمصار عِدّة. مَحاضِن تعليميّة سَهر عليها علماء شُهِدَ لهم برسوخ القَدَم في العلم والمعرفة، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: الشّيخ «الثّميني» بالجنوب، الشّيخ "الدّاوودي"

بتلسمان، "ابن الحَفّاف" بالعاصمة، "ابن الطبّال" بقسنطينة، والشّيخ "محمد القَشطولي" ببلاد القبائل، وغيرهم كثير ممن أفنوا أعمارهم بالتّدريس.

- على المستوى الهياكل التعليمية أحصت الجزائر سنة 1830 أكثر من ألفي مدرسة ما بين ابتدائية وثانوية وعاليّة، لساكِنَة بلغ عددها حسب الرّحالة والباحث في النَّباتات الألماني " فيلهلم شيمبرا Wilhelm Schimper " 1804-1878: مائة ألف نسمة[17]. فقال: إنّ عدد سكّانها وصل إلى مائة ألف، ووصف الحياة اليومية لبعض الأسر الجزائرية الّتي أُتيح له العيش معها بعض الوقت، ومدى غِيرَة الجزائري، وعادات تعليم أطفاله حفظ (القرآن) والفقه والحساب"[18]. كما كتب ذات الرّحالة حين زارها شهر ديسمبر 1831: «لقد بَحثتُ قصدًا عن عربيّ واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أنّي لم أعثر عليه، في حين أنّي وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فَقلَّما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشّعب. ومن الإنصاف أن نقول أن الجزائريين يتكلمون الفرنسية بطلاقة، وذلك ما دعا الحكومة الفرنسية الى استخدامهم في الوظائف العمومية ، أما الفرنسيون الذين يتكلمون العربية فلا وجود لهم إلا في النادر جدّاً (ص.52-53) (نقلا عن: دودو، 1975، صفحة 13)».

---

[17] للاستزادة حول دور الرحالة الألمان يمكن الرجوع لكتاب: أبو العيد دودو، **" الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان 1830-1855"**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975. (يمكن تحميله من الأنترنيت)

[18] الكتاب بعنوان "**رحلة فيلهيلم شيمبر إلى الجزائر في سنتي 1831و1832**"، شتوتغارت، 1834.

- مما أثار انتباهه بمدينة الجزائر، سلوك الحمّالة في ميناء المدينة وتعاونهم مع بعضهم، حيث تذكر -كما يذكر- سلوك الحمّالة في موانئ أوروبا الّذين يتصفون بالجَشع والغَدر. يصف ذلك " أبو العيد دودو" في الصّفحة 14، من كتاب "الجزائر في مؤلفات الرّحالة الألمان 1830-1855"، أنّه:

وعندما وصل الى ميناء الجزائر كان اول ما لاحظه وابتهج لرؤيته هو الاخوة التي تجلت في سلوك الحمالين مع بعضهم البعض . فقد تقدم منه جمع منهم ، ولما اختار حمالين ، قدم لهما الآخرون أدوات الحمل من حبال وعصي وابتعدوا بكل هدوء . فحمله هذا السلوك على أن يقارن بينهم وبين الحمالين في اروبا ويقول عنهم ان لهم عكس ما للجزائريين من خلال حميدة ويصفهم بالقحة والغدر والكسل (ص 18) .

لشرعنة غزوه لها، بشهادات وتقارير مزوّرة -أغلبها عسكري-، ظهرت أصوات وأقلام عاكست ذلك، حيث: شهد "Alex De Tocqueville" قائلا "كان للجزائر نظام تعليمي يوازي النّظام الفرنسي. ويواصل وصفه لمدينة الجزائر، طبيعياً، لغوياً، وثقافياً، حيث كتب:

ويتحدث بعد ذلك عن مدينة الجزائر فيرى انها قد دعيت هكذا بسبب الفياضانات التي تغمر سهل متيجة في الشتاء وتحيله الى بحيرة كبيرة ! ويقدر عدد بناياتها بخمسة عشر الف وسكانها بمائة الف نسمة ، كما يذكر اللغات المستعملة بها وهي العربية والاسبانية والفرنسية والايطالية والالمانية والانجليزية والهولاندية وغيرها مما لم يعرف له اصلا ولا نسبا .

التي تسود حياتها المنزلية فيقول : « **وقد أتيح لي أن أراقب أسرة كانت تسكن بجواري . فحين يعود الرجل الى البيت تستقبله الزوجة معانقة اياه مقبلة ، وتجلسه قربها فوق الاريكة وتحدثه ويحدثها . ويسرع الاطفال كذلك الى أبيهم فرحين ، فيضمهم الى صدره في حنان وحب ويأخذ في مداعبتهم .** » (ص 33) . وقد تعرف على جارته ، وهي عجوز اسبانية

في وصفه للحالة التّعليمية آنذاك :

ويتطرق شيمبر الى الحديث عن التربيه والتعليم فيذكر ان الاطفال يذهبون الى المدارس ، وهي موجودة بكثرة ، في السادسة من العمر ، يتعلمون فيها القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن ، ثم يواصلون تعليمهم عند العلماء والفقهاء . ويسافر الكثير منهم فيما بعد الى تونس والاسكندرية والقاهرة اما لاتمام دراستهم او لتعلم الحرف وفنون التجارة . كما يذهب البعض منهم الى « ليفورنو » لدراسة الطب واكتساب المعارف الاروبية في مختلف الميادين . والى جانب هذا هناك من سافر منهم سابقا الى فرنسا وانجلترا . وينوه المؤلف بشاب جزائري عرفه عن قرب ، ويقول عنه دون ان يذكر اسمه انه طاف باروبا كلها تقريبا وعرف احوالها وتقاليدها معرفة جيدة ، وشاهد مسارحها وآثارها في كل مكان اتيحت له رؤيته ، كما زار عددا من البلدان الافريقية وانهى رحلاته بالحج الى مكة . وكان يتكلم الى جانب العربية الانجليزية والفرنسية والاسبانية والايطالية واليونانية . ثم يؤكد المؤلف أن الحضر على العموم يقومون بسفرات كثيرة ويجوبون الاقطار المختلفة ويعودون بعد ذلك الى وطنهم مزودين بمعارف عدة . . لكنهم لا يحاولون اتقان اي شيء ولا يتعلمون اي لغة قديمة !

- في ذات السّياق أورد الجنيرال "Eugène Dumas " بأن التّعليم الإبتدائي أكثر انتشارًا على عكس الاعتقاد السّائد آنذاك، ولقد أثبتَت معرفتنا للسّكان الأصليين في المقاطعات الثّلاث أنّ نسبة الذّكور الذين يحسنون القراءة والكتابة

كانت على الأقل متساوية لإحصائيات نسبة المتعلِّمين في أرياف فرنسا (40%)

(Daumas, 1853). يصف واقع التّعليم بمنطقة القبائل فيقول:

- *L'école primaire est ouverte à tous les enfants kabyles ou arabes. Quelques parents en envoient de très-loin, plutôt que d'avoir recours aux petites écoles des tribus. On paye six douros de première mise pour chaque enfant, moyennant quoi il est nourri, logé et habillé aux frais de l'établissement, jusqu'à l'époque de son départ ceci est la règle commune ; mais nous verrons plus tard que les gens riches ajoutent à ce versement des cadeaux très-considérables. L'enfant apprend d'abord la formule religieuse de l'lslam « Il n'y a de Dieu que Dieu, et Mahomet est son prophète;» puis une demi-douzaine de prières et quelques versets du Koran.*
- "تُفتَح المدرسة الابتدائية لجميع أطفال القبائل والعرب. ويرسل بعض الآباء أبنائهم بعيدا، بدل اللّجوء إلى المدارس الصّغيرة للقَبلية. في البداية يتم دفع سِتّة دُورُو كَرَهن لكلّ طِفل، حيث يتمّ إطعامهم وإسكانهم وكِسوَتُهم على نفقة المدرسة، حيث تبقى هذه القاعدة كذلك حتّى مغادرته لها. لكنّنا سنرى لاحقًا كيف يرسل الأثرياء هدايا ذات قيمة كبيرة. وأوّل ما يتعلّمه الطّفل الشّهادتان أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمدا رسوله"، ثم يتعلّم أداء الصّلاة وحفظ بعض آيات القرآن".
- أمّا " Rosset" فقد كتب "إنّ هؤلاء الجزائريون كانوا أكثر تعليماً من الشّعب الفرنسي، حيث أنّ كل الرّجال تقريبا يعرفون القراءة والكتابة والحِساب (Lacoste, Noushi, & André, 1960, p. 288). وأنّه كانت بالجزائر العاصمة وحدها 100 مدرسة عامة وخاصة للأطفال التي تتراوح أعمارهم ما بين 10-15

سنة. ومن مؤشّرات معرفة الجزائريين بالقراءة والكتابة حسب مستشار "نابليون الثالث" "إسماعيل عربان"[19] أنّ أغلب الجزائريين وقّعوا (توقيع) دفاتر الحالة المدنيّة خلال حملة تقييد هويتهم بها (أسلوب آخر لإخضاع ومحو هوية الجزائريين)[20].

- للإشارة، يُطلَق اسم " Les Algériens" في الأدبيّات الاستعمارية ليس على أجدادنا سكّان الجزائر الأصليين الّذي استعمَرهم الفرنسيين، وأطلقوا عليهم اسم "الأهالي Les indigènes" فيما بعد، وإنّما على الفرنسين المعمّرين باختلاف جِنسياتهم الأصليّة (إيطاليين، مور، إسبانيين،..) بالجزائر ومن تمّ منحهم الجنسية الفرنسية، من اليهود والمسيحيين وبعض المسلمين، الذين غيروا أسمائهم وألقابهم.. وإن عثرنا مؤخرا على فيديو لخريطة بلجيكية تعود لـ 1584 تبين أنّ الاسم اللاّتيني لها كان Algeri [21]. عكس ما تدّعيه السّلطات الاستعمارية بأنّ اسم الجزائر لم يكن يطلق إلاّ على مدينة ساحليّة صغيرة قليلة الأهميّة، أيّ ثلاثة قرون قبل التّسمية الفرنسية سنة 1839.

---

[19] يعتبر إسماعيل عربان (توماس أوربان) من مقربي "نابليون" منذ زيارته الأولى للجزائر 1860. أعجب بأفكاره المنشورة في الكتب والصحف. فرنسي من مواليد كايان، أبوه فرنسي من تجار مرسيليا، وأمه من كايان، وكانت هي أيضا مهجنة من والدين مختلطين. وكان ميلاده غير الشرعي قد ظل يُنَغِصُ حياته، حسب " Charles-Robert Ageron". إضافةللونه الأسمر. اعتنق إسماعيل مبدأ السانسيمونية منذ العشرين كما تأثر بالحركة الرومانتيكية المهيمنة آنذاك.

[20] دامت حملة تقييد الجزائريين في سجلات الحالة المدنية سنوات، بعدما أُوكلَت لأتفه وأجهل العسكريين كما تؤكّده المصادر، بعد صدور قانون 23/03/1882 الّذي نصّ على تدوين أسماء وألقاب الجزائريين وتدوينها في سجلاّت الأم (Registre Matrice) ثمّ تنظيمها وتسجيلها في سجلات الحالة المدنيّة. بغية مواصلة حملته لمحو وتحطيم معالم الهوية الفردية والجماعاتية، إذ ألحق بكثير منه ألقابا مَشينَة وقبيحة ما زالت تمثل عقدة لليوم لدى الكثير، ذلك لأنّ ألقابهم قبل ذلك كانت ثلاثية حيث يظهر اسم الشّخص والأب والجدّ أو خماسيّة تُضاف لها المهنَة والمنطقة. وغاية كل ذلك تفكيك المؤسّسات القائمة خاصّة نظام القبيلة للاستيلاء على الأراضي، وتغيير الملكيّة الى أساس فردي بدل أساس القبيلة.

[21] https://www.youtube.com/watch?v=dxhWAI9GW30

هذا مقطع من مقدمة العسكري "O. De La Bourdonnaye" في كتابه: Dans le Bled ; esquisse algériennes" ، إذ يصف الكولون بـLes colons algériens:

Lalla-Maghnia est un des principaux marchés de l'Algérie, situé aux confins du territoire français, à l'entrée de la plaine des Angad. C'est là que les Marocains viennent prendre le premier contact avec les colons algériens. A quelques kilomètres, ils ont dû

- مع نهاية القرن الثّامن عشر عانت فرنسا من اضطرابات ومجاعات وأوبئة كبرى لم تجد سوى الجزائر لإنقاضها منها، حيث أرسلت الأخيرة مساعدات قبل الثّورة الفرنسية 1789 وبعدها، كان آخرها آلاف الأطنان من القمح والشّعير لسُكانها، إذ مازالت فرنسا مُدانة للجزائر بملايين القطع الذّهبيّة تقدّر بحوالي 24 مليون قطعة ذهبيّة (كل قطعة تزِن 3.5كلغ). حيث صرّح الباحث "محمد أمين بلغيث" قائلا أن: "المستعمر نَهب خزينة الدّولة الجزائرية، وأرقام نَهب الأموال والكنوز مدوّنة في الأرشيف الفرنسي، وهي عبارة عن خمس سُفن فرنسية كاملة الحمولة في الأشهر الأولى للاحتلال".
- يصف "أبو القاسم سعد الله" الوضع آنذاك قائلا: "ويعتبر إنتاج القرن التّاسع، رغم ذلك، من أوفر إنتاج الجزائر الثّقافي ومن أخصب عهودها بأسماء المثقفين (أو العلماء) والمؤلفات. وفي إحصاء سريع أجريته لأسماء العلماء المنتجين خلال القرن التّاسع والعاشر والحادي عشر والثّاني عشر وجدت أنّ عددهم في القرن التّاسع

يفوق أعدادهم في القرون الباقيّة متفرّقة، ولا سيما القرن العاشر الّذي عرف نقصاً كبيرا في عدد العلماء وفي المؤلّفات لأسباب سنعرفها. وكثير من إنتاج القرن التّاسع ظل، كما سنرى، موضع عناية علماء القرون اللاحقة والتعليق عليه وتقليده ونحو ذلك. وكثير من علماء القرن العاشر، الذي هو نقطة انطلاقة هذا الكتاب، كانوا تلاميذ أوفياء لعلماء القرن التاسع " (سعدالله، 2007، صفحة 39).